Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 43:3 (2008)

بسم الله الرحمن الرحيم

إعجاز القرآن بما فيه من الإشارات العلمية الدقيقة

محمد عبد التواب حامد

ينبغي قبل الكلام على الإعجاز العلمي للقرآن أن نفرّق بينه وبين التفسير العلمي، حيث يخلط بينهما كثير ممن يتناول مباحث الإعجاز العلمي.

أما التفسير العلمي: فهو كما عرّفه الدكتور الذهبي: "التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها"[1]. وهذا التعريف يرجع في أصله إلى تعريف الأستاذ أمين الخولي في كتابه **التفسير: معالم حياته ومنهجه اليوم**. ويعرّفه الدكتور فهد الرومي بأنه "اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز القرآن، ويدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان"[2]. وعرّفه الشيخ الأهدل فقال: "هو تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث، بغضّ النظر عن صوابه وخطأه، وذلك ليشمل التفسير الصحيح والتفسير الخاطئ"[3].

ولا يخفى أن تعريف الشيخ الأهدل أقرب التعريفات إلى الصواب، ذلك لأن التعريفين السابقين لا يشملان التفسير الصحيح والتفسير الخاطئ من جهة، كما أنهما يشتملان على عبارات فيها

1- محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان، 1407هـ/ 1987م، 2/ 474.

2- فهد الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ط 1، 1407هـ/ 1986م، 2/ 549.

3- أحمد عطا محمد عمر، **الاتجاه العلمي للتفسير في القرن العشرين**: رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، 96-1997م، ص 10.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

معنى التكلف من جهة أخرى، مثل عبارة "يحكم الاصطلاحات العلمية" في التعريف الأول، وعبارة "اجتهاد المفسر في كشف الصلة" في التعريف الثاني.

أما الإعجاز العلمي: فالمراد منه "إخبار القرآن بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل العلمية البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو زمن نزول الوحي". أو هو: "تأكيد الكشوف العلمية الحديثة الثابتة والمستقرة للحقائق الواردة في القرآن الكريم بأدلة تفيد القطع واليقين باتفاق المتخصصين". أو هو: "إظهار صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بما حمله إليه الوحي من علم إلهي يثبت تحققه، ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى أيّ مصدر بشري في عصره"[4]. وكل من التعريفات الثلاثة السابقة صحيحة ومقبولة، إلا أن أصحها وأدقها هو التعريف الأول، كما لا يخفى.

وليس المراد بوصف بعض الآيات القرآنية بوصف العلم نفي العلم عن الآيات الأخرى التي لا تعلق لها بهذه العلوم، وإنما المراد العلم التجريبي، ليخرج به العلوم الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية، لأن القرآن مشتمل على أصول هذه العلوم، بطريقة تثبت أنه من عند الله تعالى وليس من عند بشر. وينبغي التنبّه إلى أن قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم تقوم على حقيقتين اثنتين:

أولاهما: أن الإعجاز العلمي ليس هدفا في ذاته.

والأخرى: أن القرآن الكريم كتاب هداية، ومن وسائل هذه الهداية ما تحتويه آيات الكتاب العزيز من دلائل علمية ذات بال.

ولا خلاف بين العلماء في أن القرآن الكريم معجز من حيث اشتماله على حقائق علمية قد تم اكتشافها في العهود التي تلت عهد النزول، بما يدل دلالة قاطعة على المصدر الرباني لهذه الحقائق. هذا على وجه الإجمال، أما التفصيل فيعرض فيه خلاف بين العلماء نظراً لتفاوت المعارف والاطلاع على المكتشفات وحقائق العلوم.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد عددا كبيراً من الآيات، يقدرها بعض الباحثين بما يزيد عن تسعمائة آية، قد تحدثت عن سنن الله تعالى في هذا الكون ونظامه، وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه، لذا كان لزاماً على المهتمين بالدراسات القرآنية أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم، ويظهروا ما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق الضخمة والدقيقة على لسان رجل أمّي لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم صلوات الله

4- الشيخ الزنداني، **المعجزة العلمية في القرآن**، بحوث مؤتمر الإعجاز العلمي 1987م بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

وسلامه عليه، مما يدل على أنه تلقّاها ممن يعلم السر في السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِيْ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوْرًا رَحِيْمًا**﴾[5].

يقول فضيلة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: "ثم إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلا على إعجاز آخر، فهو بذلك يومئ إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل، وأن الإنسانية ذاهبة في أرقى عصورها إلى هذا المذهب، وأن الدين سيكون عقليا، فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك في الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة، فإن أسفر الصبح وبقي بعض الناس نياما لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمي النوم في أعينهم، وآخرون لا يرونه من نوم العمي في أعينهم والصبح فوق هؤلاء وهؤلاء ﴿**فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**﴾"[6][7].

وقد كان التقدم العلمي والتكنولوجي في هذا العصر وكثرة المخترعات الحديثة والاكتشافات العلمية سببا في ظهور كثير من المؤلفات التي تناولت التفسير العلمي للقرآن، وسببا في جذب الكثير من المثقفين للاطلاع على هذه المؤلفات.

كما أن المسلمين وجدوا في هذا اللون من التفسير، أو في هذا الوجه من وجوه الإعجاز ـ كما دعوه ـ ميدانا ملائماً للدعوة إلى الإسلام، وإقامة الدليل على أن القرآن وحي يوحى، وأنه تنزيل من حكيم حميد، في الوقت الذي ضعفت سليقة العرب اللغوية وأضحوا غير قادرين على تذوق الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وفي الوقت الذي عدّ فيه هذا الإعجاز الجديد قادراً على مخاطبة العرب وغير العرب.

وقد كان هؤلاء الكتّاب والمفكرون يعرضون تفسيراتهم العلمية للآيات القرآنية تحت عنوان "الإعجاز العلمي للقرآن" الذي يعتبرونه من أشهر وجوه إعجاز القرآن في هذا العصر، وقد تم منذ عدة سنين تشكيل هيئة بالمملكة العربية السعودية تعنى بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة. وقد أصدرت هذه الهيئة كثيراً من المؤلفات في إعجاز القرآن والسنة، وعقدت كثيراً من المؤتمرات، كما استعانت بكثير من الباحثين والعلماء المشهورين في العديد من التخصصات، من الشرق والغرب على السواء. إلا أن بعض العلماء تَحفَّظ على هذا الوجه من الإعجاز نظراً لما احتوته كتب بعض المؤلفين من شطحات وتجاوزات لا تليق بعظمة القرآن.

5- سورة الفرقان، الآية : 6.

6- سورة الأنعام، الآية : 104.

7- مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دون ذكر المطبعة ولا تاريخ الطبع، ص 131.

ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها المؤلفون في هذا الباب اعتمادهم كثيراً من النظريات العلمية التي لم تثبت بطريقة قاطعة في تفسير الآيات القرآنية وإغفالهم المأثور الصحيح في تفسير الآيات، وجهلهم بمدلولات الألفاظ التي نزل بها القرآن، وعدم مراعاة العقائد الثابتة بالأدلة القاطعة، إلى غير ذلك من الأسباب.

ومما زاد الطين بلة، تصدّي كثير من الكتّاب غير المؤهلين تراثيا ولا علميا لمثل هذه الموضوعات، مما أثقل كاهل المكتبة الإسلامية بكتب وبحوث يحتاج الكثير منها إلى المراجعة والتمحيص. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: "ولكن الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن بحيث أصبحت خطراً على الإيمان ذاته، لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن تعول أكثر مما يجب على آراء العلماء، وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التحقق من صحتها"[8].

وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث نرى أن من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطيئة.

على أن كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية بالنظريات العلمية المتجددة المتغيرة، تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي أيضاً على معانٍ ثلاثة كلها لا تليق بجلال القرآن[9]:

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيّل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس.

الثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناءً يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي. حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ويستخدم بعض نواميسه في خلافته.

الثالثة: هي التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن، كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجدّ فيها جديد.

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشف العلم من حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم

8- محمد عبدالله دراز، **مدخل إلى القرآن الكريم**، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1419هـ/ 1998م، ص 176.

9- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية الخامسة عشر، 1408هـ/ 1988م، 1/ 182 وما بعدها باختصار.

آيات القرآن، علينا أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله. وفي هذا استجابة لأمر الله تعالى بالتدبر في آياته والنظر في كونه.

ويعدّ الإمام أبو إسحاق الشاطبي حامل لواء الاعتراض على هذا الجانب، وحجته أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا.[10] وأنه يجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، وأنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم. وأنه لا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب وليكن شأن الاعتناء بما شأنه أن تعتني العرب به والوقوف عندما حدّته.

وقال إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها.

ومن هؤلاء أبو حيان الأندلسي، فقد انتقد في تفسيره[11] طريقة الرازي في تفسيره وغيره من جمعه لمختلف العلوم وانتقاله من علم إلى علم، فقال: ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخبيط في أقصى درجة، وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي قدس الله تربته يقول ما معناه: متى رأيت الرجل ينتقل من فن إلى فن في البحث أو التصنيف فاعلم أن ذلك إما لقصور علمه بذلك الفن أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه، حيث يظن أن المتغايرات متماثلات.

ومن المحدثين: أمين الخولي ومحمد عزة دروزة وعباس العقاد وصبحي الصالح وسيد قطب، محمد حسين الذهبي وغيرهم. يذكر الدكتور الذهبي عدة اعتراضات على هذا الجانب، فيقول:

أولاً: من الناحية اللغوية: إن كثيراً من الألفاظ القرآنية قد تغيرت دلالاتها وتوسعت بمرور الزمان، فهل يعقل أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل على معانٍ جدّت باصطلاح حديث.

ثانيا: من الناحية البلاغية: إن البلاغة هي مطابقة المقال لمقتضى الحال؛ والتفسير العلمي يضر ببلاغة القرآن، لأن من خوطبوا بالقرآن وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني، وكان الله يريدها من خطابه لهم لزم أن يكون القرآن غير بليغ لعدم مراعاته حال المخاطبين، وإن كانوا يعرفون هذه

10- الشاطبي، **الموافقات في أصول الأحكام**، تعليق: محمد حسنين مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2/ 53.

11- أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1403هـ/ 1983م، 1/ 341.

المعاني فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوى علوم الأولين والآخرين.

ثالثا: الناحية الاعتقادية: فلو ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء، وجعلناه مصدراً للعلوم، لكنا بذلك أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء، ولو ذهبنا إلى تقصيد القرآن ما لم يقصد من نظريات ثم ظهر بطلان هذه النظريات فسوف يتزلزل اعتقاد المسلمين في القرآن الكريم لأنه لا يجوز أن يكذب اليوم ما صححه بالأمس(12).

وللمعترضين حجج أخرى أضربنا عن ذكرها صفحا خوف التطويل.

العلماء المؤيدون لهذا الجانب من التفسير:

اختلفت مواقف العلماء المؤيدين للتفسير العلمي للقرآن بين الاعتدال والمبالغة، ولكل حججه. ومن أشهر المتحمسين لذلك الإمام أبو حامد الغزالي حيث ذكر في **الإحياء**: أن كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات في القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها. واشترط لذلك عدم مناقضته لظاهر التفسير، بل يكون استكمالا له، لا بدلاً عنه.

ومن هؤلاء الإمام فخر الدين الرازي، وقد حوى تفسيره تفاصيل مختلف العلوم كالفلك والنجوم والطبيعة ونحو ذلك.

ومنهم الإمام الزركشي، فقد عقد فصلا خاصا في كتابه **البرهان في علوم القرآن** عنونه بقوله: "في القرآن علم الأولين والآخرين".

ونقل السيوطي عن ابن أبي الفضل المرسي أنه قال في تفسيره: "جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم بها، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علوم وسائر فنونه"(13).

12- راجع الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 2/ 492 وما بعدها (بتصريف كبير).

13- جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات رضي، بيدار عزيزي، ط 2، 1343هـ، 4/ 30.

ويقول الإمام السيوطي: أن كتاب الله العزيز قد اشتمل على كل شيء؛ أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة. إلى غير ذلك[14].

ومنهم الإمام ابن القيم حيث يقول في مقدمة كتابه **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان**: "إن كل حرف من القرآن تنفجر منه ينابيع من الحكمة، ... وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر"[15]، لأنه "منبع كل علم وحكمة"[16].

ومن أبرز المتأخرين الشيخ طنطاوي جوهري، حيث طبق ذلك في تفسيره **جواهر القرآن**، ويعتبر كتابه هذا محاولة لتفسير القرآن تفسيراً علميا، حيث أورد فيه كمًّا غير قليل من عجائب الكون وأسرار العلوم والفروض العلمية، وهو يبني تفسيره عموما على أساس معطيات العلوم والفروض العلمية التي انتهت إليها الكشوف في عصره، ويجعل من الآية القرآنية سبيلا إلى التطرق إلى هذه المعطيات والفروض. وكثيراً ما يلجأ إلى الموازنة بين الإشارات العلمية التي تحملها الآيات القرآنية وبين مقررات العلم، كما يستشهد بآراء كثير من علماء الغرب في مختلف العلوم الكونية.

وقد كثر نقد الناقدين لهذا التفسير، وادّعى بعضهم أنه ليس من التفسير في شيء، وقد استطرد صاحبه إلى ذكر تفصيلات كثيرة، وحشوه بأنواع من العلوم، مما جعله أشبه بموسوعة علمية، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من القضايا في حاجة إلى تأكيد، وكثير منها لم يبق على حاله إلى الآن.

يقول الشيخ منّاع القطان: وقد أساء الشيخ طنطاوي جوهري في نظرنا بهذا التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يُحسن صنعا، ولم يجد تفسيره قبولا لدى كثير من المثقفين، لما فيه من تعسف في حمل الآيات على غير معناها، ولذا وُصف هذا التفسير بأن فيه كل شيء إلا التفسير[17].

ومن هؤلاء أيضاً الشيخ ابن عاشور في تفسيره **التحرير والتنوير**، ويرى أنه من الضروري تطعيم التفسير بما لا بد منه من أنواع العلوم مما يزيد معنى الآية وضوحاً وجلاء، والمقصد القرآني ثباتاً ورسوخاً،

14- نفس المصدر، 4/ 38-40 (بتصرف).

15- شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية، **كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان**، تحقيق: السيد محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1328هـ، ص 5.

16- نفس المصدر، ص 6.

17- الشيخ مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 7، 1410هـ/ 1990م، ص 383 ببعض تصرف.

فيقول: وإن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقاً بتفسير آي القرآن، كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان التمانع، لتقرير معنى قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيْهِمَآ آلِـهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[18] وكتقدير مسألة المتشابه، لتحقيق معنى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَـمُوْسِعُوْنَ**﴾[19] فهذا كونه من غايات التفسير واضح.

وإذ يقترح ابن عاشور نماذج وأمثلة لما عسى أن يسلك فيه المفسر مسلكا علميا، فإنه لا يطلق ذلك بل يقيّده بقيود ويحدده بشروط، فيقول: "وشرط كون ذلك مقبولا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز، فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم، ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له لئلا يكون كقولهم: الشيء بالشيء يذكر. وقد تولى الطاهر بن عاشور الردّ على الإمام الشاطبي القائل بالمنع، فقال بعد أن ذكر أدلة الشاطبي: وهو أساس واهٍ لوجوه ستة: الأول: أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قدمناه، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوْحِيْهَآ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَآ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**﴾[20]. الثاني: أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة. الثالث: أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه. يعنون معانيه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه. الرابع: أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة. الخامس: أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداءً لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوماً لديهم فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام وتحجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. السادس: أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصَّلوا وفرَّعوا في علوم عُنُوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضاً. لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطي التفسير أوسع قريحة في العلوم"[21].

18- سورة الأنبياء، الآية: 22.

19- سورة الذاريات، الآية : 47.

20- سورة هود، الآية : 49.

21- الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، 1984م، 1/ 45.

ولا شك أن رد الشيخ الطاهر بن عاشور له قيمته العلمية، لكنه لا ينهض دليلاً على إبطال كلام الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى.

وممن اهتموا بذلك في مؤلفاتهم: الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغي ومحمد فريد وجدي وجمال الدين القاسمي ومحمد أحمد الغمراوي وحنفي أحمد والشيخ محمد متولي الشعراوي وغيرهم، ولولا خوف الإطالة لتحدثنا عن كل هؤلاء ومصنفاتهم بشيء من التفصيل.

والإعجاز العلمي ـ كما سبق تعريفه ـ لا يخالف فيه أحد، وإنما الخلاف في التفسير العلمي وقد سبق بيان الفرق بينهما آنفاً.

أدلة الإعجاز العلمي:

أولاً: قال تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَـمَّـا يَأْتِهِمْ تَأْوِيْلُهُ**﴾[22]. ومعنى الآية الكريمة أن القرآن معجز من وجوه لا تحصى، وهم كذبوه قبل أن يتدبروه ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلية، وهذا صريح في أن القرآن يحتوي على بعض الحقائق التي ستتضح بمرور الزمان.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ**﴾[23]. والمعنى كما قال ابن كثير: سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزّلاً من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بدلائل خارجية "في الآفاق" من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد والحسن والسدّي: ودلائل في أنفسهم. قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع...، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك؛ وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها أو يتعداها[24].

ثالثاً: قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة[25].

22- سورة يونس، الآية : 29.

23- سورة فصلت، الآية : 53.

24- الحافظ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1405هـ/ 1985م، 4/ 166.

25- رواه البخاري في كتاب التفسير، فضائل القرآن، 6/ 224.

ضوابط الإعجاز العلمي في القرآن:

هناك ضوابط مهمة يجب أن يتقيد بها من يتعرض للإعجاز العلمي، يمكن تلخيصها فيما يأتي[26]:

أولاً: اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى، وليس كتاب علوم وكونيات. والهدف من هذا هداية الناس إلى باريهم، للقيام بالدور الذي أوكل إليهم في خلافة الأرض، ولأداء المهمة التي خلقوا من أجلها وهي عبادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ**﴾[27]، فينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه.

ثانياً: التقيّد بما تدل عليه اللغة التي نزل عليها القرآن وهي لغة العرب: مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، وما اشتملت عليه من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد وإجمال وبيان... وغير ذلك، وما يتعلق بذلك من القواعد الثابتة؛ كحمل المطلق على المقيد، وتخصيص العام، وحمل اللفظ على حقيقته إلا لصارف يصرفه عنها. وبوجه عام ما تمس الحاجة إليه من علوم اللغة وأصول التفسير مما يتوقف عليه فهم المعنى.

ثالثاً: البعد عن التأويلات البعيدة في بيان الإعجاز، وألا يعدل عن الظاهر إلا بدليل قوي، فينبغي التقيد بالمنهج القرآني وعدم تحميل النصوص القرآنية ما لا تحتمل، كما ينبغي ألا نحول تفاسير القرآن إلى كتب لهذه العلوم المختصة، فنحشوها بتفاصيل العلوم المختلفة التي تخرجنا عن حد الاعتدال.

رابعاً: الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهًا مقبولة في التأويل، فعند إرادة فهم الكلمة القرآنية أو العبارة القرآنية، لابد من الرجوع إلى دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية، واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحتملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

خامساً: اتباع المنهج القرآني في العلم والمعرفة، للنظر في الآيات الربانية في الكون والأنفس والآفاق، والوقوف على سنن الله في ذلك وبما أن أمور الكون قائمة على سنن خلقها الله سبحانه وتعالى، وسير الكون بموجبها، فإن من تعرف على هذه السنن أمكنه تسخيرها لمصالحه والإفادة منها في تيسير سبل العيش وإحراز التقدم المادي، بغض النظر عن معتقده وسلوكه، وذلك بمقدار ما يشاء الله ويخص بذلك من يريد.

26- انظر: مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط 1، 1408هـ/ 1988م، ص 171، صلاح الخالدي، **إعجاز القرآن البياني**، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1421هـ/ 2000م، ص 395.

27- سورة الذاريات، الآية : 56.

سادساً: أن يطلب المفسر معنى الآية أو الآيات في القرآن الكريم أولاً ثم في السنة النبوية، ثم في أقوال الصحابة، ثم في أقوال التابعين، وهذا ما يعرف بالتفسير المأثور، وللتفسير أصوله وقواعده المعروفة عند أهل الشأن.

سابعاً: ألا يجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل لابد من أن تعدّ أصلاً، فما وافقها قبل، وما خالفها رفض.

ثامناً: ألا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، فينبغي الاقتصار على الحقائق العلمية في صدد تفسير الآيات، وعدم الالتفات إلى النظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، ولو من باب الاستئناس بها، لأن ربط نظرية قابلة للتغير والإبطال بتفسير آية قرآنية يورث شعوراً معينا لدى القرّاء، وفي حال ظهور بطلان هذه النظرية فلن يسلم الفهم الخاص بالآية من تشويش واهتزاز. وقد كان ذكر كثير من الإسرائيليات في كتب التفسير سبباً في فهم بعض الآيات القرآنية فهما خاطئاً.

وقد روعيت في القرآن بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة، لا يصدر مثلها عن مخلوق، فضلا عن رجل أمي نشأ في الأميين صلى الله عليه وسلم، نذكرها فيما يلي بشيء من الاختصار[28].

أولها: إن القرآن لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقوانين مختلفة، وفي تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، ثم إن أمرها بعد ذلك هيّن بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فالقرآن كتاب هداية وإعجاز ولا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز، وهو حين يذكر شيئاً من الكونيات فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الحق، ولا يقصد القرآن في خطابه شرح حقائق العلوم من فلك وهيئة وطبيعة وغير ذلك، فإن ذلك ليس من مهمته.

والذين يحملون القرآن ما لا يحتمل من هذه العلوم هم في الحقيقة مخطئون مسرفون، ذلك لأن القرآن قد حدد الهدف الذي أنزل من أجله وبين أنه ﴿ **هُدًى لِلْمُتَّقِيْنَ** ﴾[29] وأنه ﴿ **نُوْرٌ وَكِتَابٌ مُبِيْنٌ يَهْدِيْ بِهِ اللهُ مَنِ اتبعَ رَضِ ْ وَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ** ﴾[30]. كما أن عظمة القرآن لا تتوقف على أن نتحل له وظيفة جديدة، ولا نحمله مهمة ما أنزل الله بها من سلطان.

28- الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط 3، ولم يذكر سنة الطبع، 2/ 250 وما بعدها (بتصرف كبير).

29- سورة البقرة، الآية: 2.

30- سورة المائدة، الآيتان : 15، 16.

ثانيها: إن القرآن دعا إلى هذه العلوم في جملة ما دعا إليه من البحث والنظر، والانتفاع بها في الكون من نعم وعبر، قال تعالى: ﴿**قُلِ انْظُرُوْا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[31] وقال جل شأنه: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيْعًا مِنْهُ إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ**﴾[32].

ثالثها: إن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مربوبة له تعالى ومقهورة لمراده، ونفى عنها ما علق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهي مألوهة، وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هي خاضعة لقدرة الله تعالى وسلطانه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُوْلَا وَلَئِنْ زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[33] وقال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوْا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِهِ**﴾[34].

رابعها: إن القرآن حين يعرض لآية كونية في معرض من معارض الهداية يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون، الخبير بأسرار السماوات والأرض، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية وأوقع من أوقع منهم في الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن.

خامسها: إن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الله الكونية أسلوب بارع، جمع بين البيان والإجمال في سمط واحد، بحيث يمر النظم الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل، فإذا هو واضح فيما سيق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم هو مجمل التفاصيل، يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه، باختلاف ما لديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون.

قال بعض العلماء: "من عجيب أمر هذا القرآن أن يذكر أمثال هذه الدقائق العلمية العالية، التي كانت جميع الأمم تجهلها، بطريقة لا تقف عثرة في سبيل إيمان أحد به، في أيّ زمن كان، مهما كانت معلوماته، فالناس قديما فهموا أمثال هذه الآيات بما يوافق علومهم، حتى إذا كشف العلم الصحيح عن حقائق الأشياء، علمنا أنهم كانوا واهمين وفهمنا معناها الصحيح. فكأن هذه الآيات جعلت في القرآن معجزات للمتأخرين، تظهر لهم كلما تقدمت علومهم... وأما المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم،

31- سورة يونس، الآية : 101.

32- سورة الجاثية، الآية : 13.

33- سورة فاطر، الآية: 41.

34- سورة الزمر، الآية : 67.

فمعجزته لهم: إتيانه بأخبار الأولين وبالشرائع التي أتى بها وبالمغيبات التي تحققت في زمنه ... وغير ذلك، مع علمهم بصدقه وحاله صلى الله عليه وسلم، وبعده عن العلم والتعلم بالمشاهدة والعيان"[35].

وإنني لأعتقد أن الإعجاز الحقيقي في هذا الجانب، أعني جانب الحقائق العلمية عن الكون والإنسان التي أشار إليها الكتاب العزيز يكمن في طريقة القرآن في التعبير عنها ـ وهي الاعتبارات الخمسة التي ذكرناها سلفاً ـ لا فيما سمّيناه تفسيراً علمياً قد نخطئ فيه أو نصيب، لقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقائق على نحو يفهم خلال العصور! بمعنى أن أسلوب القرآن ونظمه وبيانه اتسع للتعبير عن هذه الحقائق العلمية على نحو لا يعجز عن خطاب الإنسان في أيّ عصر، ولا يحمّله كذلك أكثر مما يطيق.

وغني عن البيان أنه ليس في مقدور أحد من الثقلين أن يكتب بهذه الطريقة أو أن يجيء بمثل ما جاء به القرآن، وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم فُهِمَ وفُسِّرَ خلال هذه العصور، أما انفراد العصر الحديث ـ عصر الكشوف العلمية ـ بهذا اللون من ألوان الفهم، أو ألوان الشرح والتفسير، فيعود إلى أن إدراك المدلول العلمي أو الحقيقي للإشارات القرآنية المتعلقة بالطبيعة والإنسان، يتوقف على التجربة والعمل الإنساني، التي هي من عمل العصور التالية لعصر التنزيل ـ والقرآن كما نعلم لجميع العصور ـ أي يتوقف على تطبيق المنهج القرآني في التعامل مع هذه الإشارات والظواهر، أو على الامتثال للأمر القرآني بالنظر والملاحظة والتجربة[36].

هذا وبعد توضيح وجهة نظر كل من المجوّزين والمانعين للتفسير العلمي، نقول: لا رفض للتفسير العلمي مطلقا، ولا تأييد وتسليم له مطلقين، بل جمع بين حقيقتين: حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين. ومن هنا كان المسلمون كلهم متفقين على أن القرآن الكريم لم يصادم ولن يصادم حقيقة علمية، وإنما يقع التصادم عندما تكون إحدى الحقيقتين مزعومة، إما الحقيقة العلمية وإما الحقيقة القرآنية.

بعض الأمثلة من التفسير العلمي:

المثال الأول[37]: يقول الله تعالى: ﴿**وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوْسِعُوْنَ**﴾[38]. إن بناء

35- محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1398هـ/ 1978م، 1/ 337، نقلاً عن بعض أهل العلم.

36- عدنان محمد زرزور، **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، ص 234.

37- مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، ص 163، نقلا من كتاب جمال الدين الفندي، **القرآن والعلم**، ص 213 مختصراً.

38- سورة الذاريات، الآية: 47.

الكون المادي المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحوي كل مجرة منها بلايين الشموس والنجوم وما يتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب ما يعُج به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات، وقد وسعته قدرة الخالق عزوجلَّ، يضاف إلى ذلك ﴿**وَإِنَّا لَـمُوْسِعُوْنَ**﴾ أي إنا لموسعون السماء حين خلقنا الكون ابتداء على اتساع لا نهاية له، ولذلك فهو يتسع لكل المجرات مهما تباعدت عن بعضها بعضا.

ومن الوجهة العلمية، لم يثبت حجم الكون على حال منذ راح العلماء يقيسون أبعاده. ولقد جعل العلماء للنجوم أقداراً بحسب درجات بريقها أو لمعانها. وعدد النجوم التي يمكن أن ترى في القبة السماوية وتلمع بدرجات متفاوتة القدر بالنسبة للعين المجردة لا يزيد عن نحو ستة آلاف نجم تقريبا، وعندما استخدمت المناظير الفلكية المكبرة صور الفلكيون مجرتنا وحدها على هيئة قرص أو عدسة، تقع شمسنا على بعد 30 ألف سنة ضوئية من مركزها، ويبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية، أما سمكها فيبلغ زهاء ستة آلاف سنة ضوئية.

المثال الثاني[39]: يقول الله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيْ لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيْزُ الْغَفَّارُ**﴾[40].

في **مفردات** الراغب، في مادة "كور"[41]: كور الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، وقوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما.

وفي **لسان العرب**[42]: وتكوير الليل والنهار أن يُلحق أحدهما بالآخر، وقيل: تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه، وقيل: إدخال كل واحد منهما في صاحبه. والمعاني متقاربة.

وفي **الصحاح**: وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه، ويقال زيادته في هذا من ذلك. وفي التنزيل العزيز: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ أي يدخل هذا على هذا، وأصله من تكوير العمامة وهو لفّها وجمعها. وكورت الشمس جمع ضوءها ولُفّ كما تلف العمامة، وقيل: معنى كورت غورت.

39- مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، ص 166.

40- سورة الزمر، الآية: 5.

41- الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت، ص 665.

42- ابن منظور، **لسان العرب**، 5/ 156.

يقول سيد قطب عند تفسير هذه الآية: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ "وهو تعبير عجيب، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان لأنها نظريات تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتبطل غدا. والقرآن حق ثابت يحمل أية صدقة في ذاته ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل. مع هذا الحرص، فإن التعبير يقسرني قسرا على النظر في موضوع كروية الأرض، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار. وهذا السطح مكوّر فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً كذلك. وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ واللفظ يرسم الشكل ويحدد الموضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير أدق من أيّ تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية"[43].

المثال الثالث[44]: "قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾[45] كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سبباً لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه، ولما اهتدى علماء أوروبا إلى هذا وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم صرّح بعض المطلعين على القران منهم بسبق العرب إليه. قال مستر "أجنيري" المستشرق الذي كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة آكسفورد في القرن الماضي: "إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا". نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز".

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾[46]. إن هذه الآية هي أكبر مثلاً للعجب بهذا التعبير "موزون" فإن العلماء الإخصائيين في علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع

43- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 6/ 3038.

44- محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1/ 210.

45- سورة الحجر، الآية: 22.

46- سورة الحجر، الآية : 19.

من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الغرام والمليغرام، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات، أعني أن هذا التعبير بلفظ "كل" المضاف إلى لفظ "شيء" الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون ـ تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل.

وإليك بالإضافة إلى ما سبق من الأمثلة بعض دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم:

قال بعض علماء الفلك ما مثاله[47]: إن القرآن الكريم قد أتى في هذا الباب بمسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه المسائل تعتبر من معجزات القرآن العلمية الخالدة، وهاكها ملخّصة:

المسألة الأولى: الأرض كوكب كباقي الكواكب السيارة: ﴿**اَللهُ الَّذِيْ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾[48]، وهما من مادة واحدة ﴿**كَانَتَا رَتقاً فَفتَقَنَاهُمَا**﴾[49] وهي تدور حول الشمس ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[50].

المسألة الثانية: السيارات الأخرى مسكونة بالحيوانات ﴿**وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا مِنْ دَآبَّةٍ**﴾[51]، ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ**﴾[52] ﴿**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[53]. ومجموع هذه الآيات يدل على أن في السماوات حيوانات عاقلة كالإنسان، لا كما يزعم القدماء: إن الكواكب كلها أجرام فارغة خلقت ليتلذذ بمنظرها الإنسان.

المسألة الثالثة: ليس القمر خاصا بالأرض، بل للسيارات الأخرى أقمار ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوْرًا**﴾[54]، فالألف واللام في "القمر" للجنس، لا للعهد، كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ**﴾[55].

47- القاسمي، **محاسن التأويل**، 1/ 232، ولم يذكر المصدر المنقول عنه.

48- سورة الطلاق، الآية: 12.

49- سورة الأنبياء، الآية: 30.

50- سورة النمل، الآية: 88.

51- سورة الشورى، الآية: 29.

52- سورة الإسراء، الآية: 44.

53- سورة الرحمن، الآية: 29.

54- سورة نوح، الآية: 16.

55- سورة التين، الآية : 4.

المسألة الرابعة: ليست السيارات مضيئة بذاتها، بل إن الشمس هي مصباحها جميعا ﴿**وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾[56] أي لهن، كما يدل عليه السياق؛ فالنور الذي نشاهده فيها منعكس من الشمس.

المسألة الخامسة: السماوات والسيارات السبع شيء والشمس والقمر شيء آخر، فهما ليسا من السيارات كما كان يتوهم القدماء ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾[57]، وغيرها كثير.

المسألة السادسة: العوالم متعددة ولذلك يقول القرآن في كثير من المواضع: ﴿**اَلْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[58]، والعوالم هي منظومات من الكواكب المتجاذبة ﴿**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾[59]، لا كما كان يتوهم القدماء: أن العالم واحد وأن الإنسان أشرف الموجودات.

المسألة السابعة: ليست جميع العوالم مخلوقة لأجل هذا الإنسان ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾[60] أي الناس المعهودين على وجه الأرض. والإنسان الأرضي أفضل من بعض المخلوقات لا كلها ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلًا**﴾[61]. ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾[62]. إذ لا يلزم من هذا القول أنها غير مسخّرة لغيرنا من الأحياء، فالبحر مثلاً قال الله فيه: ﴿**سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ**﴾[63]، مع أنه مسخّر لغيرنا من الحيوانات البحرية أتمّ وأعمّ، فمنه تأكل وتشرب وتتنفس، وفيه تسكن وتحيى وتموت. فما هو مسخّر لبعض الحيوانات تسخيراً جزئيا قد يكون مسخّراً لغيرها تسخيراً كليا. فكذلك النجوم مسخّرة لنا ـ لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ـ مع أنها لغيرنا شموس عليها قوام حياتهم، كما أن شمسنا عليها قوام حياتنا وهي ـ بالنسبة لهم ـ نجم من نجوم الثوابت. وبالجملة فإن جميع العوالم ـ بما بينها من الارتباط العام والتجاذب الذي بينها ـ مسخرة بعضها لبعض بالنفع الكلي أو الجزئي.

56- سورة نوح، الآية : 16.

57- سورة العنكبوت، الآية: 61.

58- سورة الفاتحة، الآية: 2.

59- سورة الذاريات، الآية: 7.

60- سورة غافر، الآية: 57.

61- سورة الإسراء، الآية: 70.

62- سورة الجاثية، الآية : 13.

63- سورة الجاثية، الآية : 12.

المسألة الثامنة: كان القدماء يعتقدون أن جميع الثوابت مركوزة في كرة مجوفة يسمونها كرة الثوابت ـ أو فلك الثوابت ـ وبحركة هذه الكرة تتحرك الكواكب كما تقدم. ومعنى ذلك أن الكواكب لا حركة لها بذاتها، وأن فلك جميع الثوابت واحد، وأنه جسم صلب. والحقيقة خلاف ذلك؛ فإن لكل كوكب فلكا يجري فيه وحده، وكل كوكب يتحرك بذاته لا بحركة غيره، والكواكب جميعاً سابحة في الفضاء، أو بعبارة أصحّ في الأثير ـ مادة العالم الأصلية ـ غير مركوزة في شيء مما يتوهمون. وبهذه الحقائق جاء الكتاب الحكيم والناس في الظلمات والأوهام يتخبطون... قال الله تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ**﴾(64) والتنوين في لفظ "كل" عوض عن الإضافة، والمعنى كل واحد من الكواكب في فلك خاص به يسبح بذاته. وفي قوله تعالى "يسبحون" إشارة إلى مادة العالم الأصلية ـ الأثير ـ التي تسبح فيها الكواكب كما تسبح الأسماك في الماء، فليست الأفلاك أجساما صلبة تدور بالكواكب كما كانوا يزعمون...!

المسألة التاسعة: نصّ الكتاب العزيز على وجود الجذب العام للكواكب كافّة من جميع جهاتها، فقال: ﴿**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾(65)، ﴿**أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا**﴾(66)، ﴿**هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُوْرٍ**﴾(67)، فالكون كله كالجسم الواحد الكبير، محكم البناء، لا خلل فيه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوْجٍ**﴾(68)، ويتخلله الأثير كما يتخلل ذرات الجسم الصغير ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ**﴾(69).

المسألة العاشرة: كان الناس في سالف الأزمان لا يدرون من أين يأتي ماء المطر، ولهم في السحاب أوهام عجيبة، كما كانت لهم في كل شيء سخافات وخرافات. ولكن القرآن الكريم تنزه عن الجهل والخطأ، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِيْ سَحَابًا**﴾ إلى قوله ﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾(70) وقال تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيْعَ فِي الْأَرْضِ**﴾(71). ومقتضى الآيتين أن الماء العذب الذي نشربه ونسقي به الأرض ـ سواء كان من الينابيع أو من الأنهار ـ هو من الأمطار الناشئة من السحاب، ومن أين يأتي

64- سورة الأنبياء، الآية: 32.

65- سورة الذاريات، الآية: 7.

66- سورة النازعات، الآية : 27.

67- سورة الملك، الآية : 3.

68- سورة ق، الآية : 6.

69- سورة المؤمنون، الآية : 14.

70- سورة النور، الآية : 43.

71- سورة الزمر، الآية : 21.

السحاب؟ هو بخار من بحارهذه الأرض! أي: أن السحاب هو من الأرض، وهو عين قوله تعالى: ﴿ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾[72] أي: أن الماء جميعه أصله من الأرض وإن شوهد أنه ينزل من السحاب...!

فهذه كلها آيات بينات ومعجزات باهرات دالّة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة القرآن. ولا شك أن هذا وجه قويّ من وجوه إعجاز القرآن، يزداد وضوحاً ورسوخاً كلما ظهرت مكتشفات العلوم وحقائق هذا الكون، فتزيد الخلق إيماناً بإعجاز هذا القرآن وكونه من عند الله تعالى، وتزيد الخلق تصديقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

نتائج البحث:

أولاً: التفسير العلمي هو تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث بغض النظر عن صوابه وخطأه، أما الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل العلمية البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو زمن نزول الوحي.

ثانياً: لا خلاف بين العلماء في أن القرآن الكريم معجز من حيث اشتماله على حقائق علمية، قد تم اكتشافها في العهود التي تلت عهد النزول، بما يدل دلالة قاطعة على المصدر الرباني لهذه الحقائق.

ثالثاً: القرآن الكريم يحتوي على نحو تسعمائة آية قد تحدثت عن سنن الله تعالى في هذا الكون ونظامه، وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه، لذا كان لزاماً على العلماء أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم، ويظهروا ما تضمنه القرآن الكريم من حقائق مما يدل على أن النبي الأمّي صلى الله عليه وسلم تلقّاها ممن يعلم السر في السماوات والأرض.

رابعاً: من أعظم الأخطاء التي وقع فيها المؤلفون في التفسير العلمي اعتماد بعضهم كثيراً من النظريات العلمية التي لم تثبت بطريقة قاطعة في تفسير بعض الآيات القرآنية، وإغفالهم المأثور الصحيح في تفسير الآيات.

خامساً: لا بد عند التعرض لتفسير القرآن من فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة، تعالج بناء الإنسان بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ويستخدم بعض نواميسه في خلافته.

72- سورة النازعات، الآية : 31.

سادساً: يعدّ الإمام أبو إسحاق الشاطبي حامل لواء الاعتراض على هذا الجانب، وحجته أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه، وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا. ولا يخفى على منصف قوة الأدلة التي اعتمد عليها الشاطبي في موقفه هذا. ومن أشهر المعترضين على هذا الجانب أبو حيان الأندلسي من المتقدمين، ومن المحدثين أمين الخولي ومحمد عزة دروزة وعباس العقاد وصبحي الصالح وسيد قطب ومحمد حسين الذهبي وغيرهم.

سابعاً: اختلفت مواقف العلماء المؤيدين للتفسير العلمي للقرآن بين الاعتدال والمبالغة، ولكل حججه، وأشهر هؤلاء من المتقدمين الإمام أبو حامد الغزالي وفخر الدين الرازي وأبو الفضل المرسي والسيوطي وابن القيم، ومن أبرز المتأخرين الشيخ طنطاوي جوهري والشيخ الطاهر بن عاشور ورشيد رضا ومحمد مصطفى المراغي وجمال الدين القاسمي ومحمد متولي الشعراوي وغيرهم.

ثامناً: من أهم ضوابط الإعجاز العلمي اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى، والتقيد بما تدل عليه اللغة التي نزل عليها القرآن، والبعد عن التأويلات البعيدة في بيان الإعجاز، وألا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم.

تاسعاً: قد روعيت في القرآن بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات عديدة أهمها، أولا: أن القرآن لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقوانين مختلفة وفي تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، ثم إن أمرها بعد ذلك هين بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة. وثانيا: أن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الله الكونية أسلوب بارع، جمع بين البيان والإجمال في سمط واحد، بحيث يمر النظم الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل، فإذا هو واضح فيما سيق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم هو مجمل التفاصيل، يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه، باختلاف ما لديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون.

عاشراً: اتفق العلماء على أن القرآن الكريم لم يصادم ولن يصادم حقيقة علمية، وإنما يقع التصادم عندما تكون إحدى الحقيقتين مزعومة، إما الحقيقة العلمية وإما الحقيقة القرآنية.

****